تأملات تربوية في سورة طه:
نموذج معراجي لتكوين المعلم الفعّال[1]

إعداد

أ.د/ عطية السيد عطية عبد العال

أستاذ المناهج وطرق التدريس بكلية التربية جامعة الأزهر بالقاهرة

ووكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

تأملات تربوية في سورة طه: نموذج معراجي لتكوين المعلم الفعّال١

النصوص القرآنية من أغنى المصادر التي يمكن أن يستلهم منها الباحثون نماذج تربوية متكاملة تتصف بالشمول والمرونة والعمق. ولو تأملنا القرآن الكريم، كما يتأمله الباحث المتدبر لا القارئ العابر، لوجدنا أنه يقدم للإنسان أنموذجا تربويًا متكاملًا، يخاطب فيه الفطرة والعقل معًا، ويصوغ من تعاليمه خارطة لاستكمال بناء الإنسان الكامل الذي خلقه الله في أحسن تقويم. وما سورة طه إلا واحدة من هذه التنزيلات الإلهية التي تجمع بين الوحي والعقل، وبين الهداية والتعليم. إنها رحلة تربوية معراجية، ترسم للمعلم كيف يسهم في إعداد جيل مفكرٍ، سامٍ، عاملٍ، مبدع.

نعم، تُجسد سورة طه أنموذجًا فريدًا يجمع بين التربية العقدية، والوجدانية، والمعرفية، والمهارية، في سياق قصصي ممتد يحمل دلالات تربوية يمكن إسقاطها على و اقع إعداد المعلم في العصر الحديث.

تستهدف هذه المقالة تقديم قراءة تأملية متأنية لسورة طه من منظور تربوي، وبيان تطبيقاتها العملية في تطوير كفايات وجدارات المعلم وممارساته الصفية في عالم يتغير بصورة لحظية ومتسارعة. تبدأ من بنية السورة وتنتهي برؤية تطبيقية تتفاعل مع متطلبات الو اقع المهني للمعلم، مع ربط دقيق بمحطات عشر (من الآية ١ الى ٣٦) تشكل إطارا تربويا متكاملا يستهدف تغذية القلب بالعقيدة، و إنارة العقل بالمعرفة، وتوجيه الإرادة نحو الخير والجمال والكمال.

وفي كل محطة من محطات سورة طه العشر، تبزغ أمام العاقل دروس لا يصدأ بريقها:

١. ابتداءً بحتمية بناء البيئة النفسية المطمئنة، الآمنة للمتعلم ﴿طه﴾ (١) ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢).
٢. إلى قوة السؤال الحي ودوره في تهيئة واستثارة العقل للتفكير (﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (طه:)١٧.
٣. مرورا بالقصة كوسيلة مفضلة للتعلم وأداة للتواصل الفعال والتأثير. ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (طه: ٩).
٤. إلى أهمية الانتباه والاستماع والانصات كمحركات نجاح التعلم. ﴿وأنا اخترتك فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (طه: ١٣).
٥. إلى ضرورة التركيز على لب الرسالة التربوية، وجوهرها، وحتمية، وضوحها. ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ ﴿فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾

٦. إلى لمسة النداء الإنساني الذي يعانق الروح ويخفف مشقة التكليف. (وما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (طه:١٧).
٧. إلى فن الامتاع والإقناع ومشاركة المتعلم في صناعة معرفته. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (طه:)١٨.
٨. إلى وضوح التكليف وتحديد الهدف ومساراته. {ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ}(24)
٩. إلى أهمية توفر المعينات الداعمة. {قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي}(25) {وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي} (26) {وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي}(27) {يَفْقَهُواْ قَوْلِي}(28) {وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي} (29) {هَٰرُونَ أَخِي}(30) .
١٠. و انتهاءً بالتعزيز. {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ}(36)

هذه المحطات العشر بهذه الصورة تمثل دورة تعلم تربوية تبدأ بحتمية البناء وتنتهي بحتمية التعزيز، لتبدأ مرة آخري بحتمية البناء - ومن هنا جاء نموذج معراجي – وهذا يضفي عليها صفة الاستدامة والاستمرار في تعبير صريح عن أن منهج القرآن صالح لكل زمان.

وتصرخ كل محطة من المحطات العشر بوجه الغفلة الحديثة لتعلن:

إن التربية ليست تكديسًا للمعلومات ولا تدريبًا على المهارات فحسب، بل هي قبل ذلك كله تستهدف استكمال بناء الإنسان الحر الذي يسجد لله بعقله وقلبه معًا، ويتجه إلى الكون مستخدمًا علمه لصناعة العدل والجمال، لا لطغيان المادة ولا لعبودية التقنية. هكذا ينبغي ان تكون نظرة المعلم - رحمه الله- للإنسان: عقلًا مفكرًا لا ينفصل عن وجدانه، وروحًا سامية لا تنفصل عن بدنه. وهكذا ينبغي أن يكون التعليم والتربية في زماننا: بعثًا للعقل من سباته، وإحياءً للضمير من غفلته، واستنهاضًا للإنسان من غفلته ليكون خليفة الله حقًا لا رقمًا في آلةٍ عمياء.

وفى هذا المقال سنعرض للمحطة الأولى تتبع بمقالات متتالية، حتى نفرغ من عرض وتقديم المحطات العشر.

المحطة الأولى: البيئة التعليمية الآمنة- ضرورة فطرية وعقلية

حين يتأمل العاقل في مطلع سورة طه، حيث يقول الله جل شأنه:

﴿طه﴾ (١) ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (٣)، (طه: ١-٣)، يدرك أننا أمام بيانٍ عظيمٍ لحقيقة الرسالة المحمدية. لقد جاء القرآن لا ليزيد الأعباء، أو يرهق النفوس، أو يُلقي المشقة على كاهل الناس، بل جاء ليسرّ، وليُبشر، وليُذكّر، وليُقيم صراطًا مستقيمًا من غير عوج. المشقة هنا ليست في التكاليف الشرعية نفسها، بل في تلقي النفس لها وهي غير مهيأة، أو في فهمها على غير مراد الله. إن القرآن هو ذكرى لقلوبٍ تخشى الله، وتُدرك عظمته، وتُرجى رحمته. وهنا، أيها الأكارم، يبرز الربط الوثيق بين هذه الآيات الكريمة وبين عملية التعلم، وتحديدًا الدور الجوهري للمعلم في خلق بيئةٍ نفسيةٍ آمنة. فلو أن الشريعة السمحة، وهي تكليفٌ من رب العالمين، جاءت لرفع المشقة عن النفوس، فكيف بطلب العلم والمعرفة، وهو أساس التكليف؟! فمثلما أن القرآن الكريم لم يُنزل ليشقي نفوس المتلقين، كذلك المعرفة والعلم لا ينبغي أن يكونا مصدرًا للمشقة النفسية أو الرهبة للطلاب. إن الطفل

أو الشاب الذي يأتي إلى قاعة الدرس، أو يتلقى العلم عبر الشاشة، وفي قلبه خوفٌ، أو في نفسه قلقٌ، أو في ذهنه تردٌ، لن يتمكن من التعلم الحقيقي، وإن حفظ ظواهر الكلمات.

وفي هذا السياق، يظهر أن أول واجب على المربي المسلم في عصر الطوفان الرقمي، هو أن يعيد للبيئة الصفية قدسيتها، وأن يطرد منها أشباح القلق والخوف والرهبة، ليُفسح الطريق أمام الفطرة لتنمو نماءها الطبيعي.

والقرآن، حين أعلن في صدر سورة طه أن الغاية ليست المشقة، بل التذكرة، إنما أراد أن يرسم للمربي خط سيره:

أن التعليم رسالة رحمة قبل أن يكون عبئًا، وأن المعلّم طبيب أرواح قبل أن يكون ناقل معلومات. وقد علمتنا دراسات النفس الحديثة ما أشار إليه الوحي الكريم من قبل: أن التوتر عدو الإدراك، وأن الخوف غشاوة على القلب تمنعه أن يبصر النور، وأن الطمأنينة شرط لازم لانبثاق الإبداع والتفكير. وليس بعجيب إذن أن يجعل الإسلام بناء البيئة الآمنة مقدمة على نقل المعارف، وأن يضرب لنا مثلاً عظيماً في رحمة المعلّم الأول، محمد صلى الله عليه وسلم، حين كان يسير مع أصحابه سير الرفيق برفاقه، لا يسفّه أحدًا، ولا يقسو على ضعيف.

نعم إن البيئة التعليمية الآمنة ضرورة لإحداث تنمية عقلية وركيزة لسوية نفسية، فالبيئة الصفية التي يطلبها العقل الراشد، ويحتاجها القلب الحي، ليست ترفًا ولا زينة تُعرض في واجهات الخطط التربوية، بل هي شرط بدهي ومتطلب قبلي لحدوث التعلم الحق، كشرط الهواء للتنفس، وكشرط النور للإبصار. فلا تعليم مع قلق، ولا فهم مع وجل، ولا تفكير مع اضطراب. إن السكينة النفسية التي تظلل الطالب في بيئة آمنة مطمئنة، هي التي تطلق عقله من قيود الخوف، وتبعث فيه روح المبادرة والاكتشاف. وليس هذا رأيًا يُدعى بلا دليل، بل تؤيده دراسات الباحثين الجادين؛ والتي تؤكد أن البيئة التعليمية الإيجابية هي من أقوى محركات النجاح، وأن القلق النفسي يُعد عائقًا يُعطل ملكة الحفظ والفهم، كما أشارت الدراسات والبحوث أن للبيئة الصفية أبعادًا أربعة متشابكة، كل بعد منها ركن من أركان التربية الرشيدة:

<u>أولًا: البعد النفسي والوجداني</u>

إن استقرار النفس وسكينتها، كما يقرر "ماسلو" في رؤيته الثاقبة لفطرة الإنسان، هي التربة الخصبة التي لا ينبت فيها غرس العلم ولا يزدهر إلا بها. فالطمأنينة، كما أسلفنا، هي البلسم الذي يخفف لوعة التوتر، ويمحو وحشة الرهبة، فيشرع أبواب الفؤاد لتستقبل المعرفة قبل أن تطرق أبواب العقل. وحين يرفل المتعلم في برد الأمن، وتغمره الثقة، ينطلق لسانه بالبيان، وتتفتق قريحته عن الإبداع، لا تثنيه أصوات الناقدين، ولا تضعف عزيمته سهام المشككين.

وقد فصّل "ماسلو" هذا المعنى حين بيّن أن حاجة الإنسان إلى الأمن، وإلى دفء الانتماء، وإلى الشعور بالاعتبار والتقدير، هي دعائم أساسية تسبق ارتقاءه نحو تحقيق ذاته وإطلاق طاقات الإبداع الكامنة فيه. وهذا ما أكدته بوضوح الدراسات النفسية الحديثة والتي تؤكد أن الطمأنينة النفسية لدى الناشئة هي الر افد الذي يغذي تحصيلهم العلمي .

أما "روجرز"، في منهجه الذي يجعل المتعلم محور العملية وجوهرها، فيرى أن المناخ التعليمي الحق هو ذلك الذي يحتضن المتعلم احتواءً كاملاً بلا شرط، ويغمره بتعاطف أصيل لا تكلف فيه، ويتجلى له بصدق لا مواربة فيه. فهذه المقومات هي التي تشيد صرحًا نفسيًا راسخًا، يعين المتعلم على استكمال بنائه الذاتي، ويطلق فيه العزيمة نحو استكشاف آفاق المعرفة، متعلماً بذاته ولذاته".

وبهذا نخلص الى أن: الأمان والاحتواء.. تربة التعلم الخصبة وبذرة الإبداع وأساس بناء المتعلم المبدع

ثانيًا: البعد المعرفي والأكاديمي

والتعلم - كما تعلمنا التجربة لا يقوم على مجرد فتح الكتاب أو سماع المعلم، بل يحتاج إلى تركيز ذهني صافٍ، وحمل معرفي محتمل. فالبيئة المشحونة بالضغط تملأ الذاكرة بأعباء لا حاجة لها، فيزداد العبء والحمل المعرفي، ويقل الفهم،

كما تبين نظرية الحمل المعرفي. نعم. إن المتأمل في شأن التربية والتعليم ليدرك بيقين لا يخالطه شك، أن البيئة التي تحتضن المتعلم ليست مجرد جدران وفضاء، بل هي المناخ الذي يتنفس فيه عقله وترعرع فيه نفسه. ولقد دلّت المشاهدات والتجارب المستفيضة أن الأجواء التعليمية التي تشع بالتحفيز وتفيض بالدعم، لهي السبيل إلى ارتقاء الناشئة في مدارج التحصيل، في حين أن تلك التي تقبع في ركود التقليد أو تفتقر إلى روح التشجيع، كثيراً ما تكون عائقاً دون إطلاق مكنونات العقول.

بل إن للمقومات النفسية والوجدانية، التي تنسج خيوطها البيئة التعليمية، شأناً عظيماً في هذا المضمار؛ إذ قد أثبتت دراسات جادة أن هذه المقومات تستأثر بنصيب و افر، قد يناهز شطر التفاوت، في مدى ما يحققه المتعلمون من تفوق علمي. وهذا لعمري برهان ساطع على أن العناية بالوجدان لا تقل أهمية عن شحذ الأذهان.

وإذا ما انتقلنا إلى أثر هذه البيئة في سلامة النفس واستقامتها، وجدنا أن تلك الأجواء المشحونة بالضغوط، والتي تسودها منافسة تفتقر إلى النبل وتؤجج الصراعات، إنما تزرع في نفوس المتعلمين بذور القلق، وتلقي عليهم بظلال من كدر النفس و انقباض الصدر. وعلى النقيض من

ذلك، فإن البيئات التي تحتفي بالمتعلم وتقدر جهده، وتوفر له ملاذاً آمناً، هي التي تمنحه السكينة النفسية، وتطلق فيه طاقات الإقبال على العلم بشغف وهمة.

وما هذا إلا لأن اطمئنان النفس وصفاء البال هما الشرط الأول لعمل العقل بكفاءة و اقتدار. فالنفس إذا أرهقها التوتر واعتراها القلق، كلّ الذهن وتباطأت قدرته على استيعاب المعارف وتثبيتها واستحضارها. وقد أبان أهل الاختصاص في دقائق تكوين الإنسان ووظائف عقله، أن احتدام التوتر ليعصف بالوظائف العليا للعقل، تلك التي تناط بها مكنونات الفكر وأساسات الذاكرة، فيعوقها عن أداء رسالتها على الوجه الأكمل".

ثالثًا: البعد الاجتماعي.. الإنسان في سياق الجماعة وعمق التفاعل

"وليس الإنسان، في جوهره وفطرته التي فطره الله عليها، كائنًا منعزلاً أو عقلاً مجردًا يسبح في فراغ، بل هو، شاء أم أبى، لبنة في بناء اجتماعي، وعضو حي في جسد الأمة والمجتمع. إنه كائن مدني بالطبع، كما قال الأقدمون، لا تستقيم حياته ولا تزدهر مواهبه إلا في كنف جماعة يتفاعل معها، يأخذ منها ويعطيها، يؤثر فيها ويتأثر بها.

وإن البيئة الصفية، حين تستقيم على أسس قويمة وتتأسس على رؤية واعية، لتصبح بمثابة المشكاة التي يتعلم فيها الناشئ كيف يمد يده للآخرين متعاونًا لا متنافسًا تنافسًا مذمومًا، وكيف يدير حوارًا بناءً لا جدالاً عقيمًا، فيستمع كما يتكلم، ويحترم الرأي الآخر وإن خالفه، مدركًا أن الحق أبلج والباطل لجلج، وأن التنوع رحمة وثراء. وفي رحاب هذا الصف، يتربى على فضيلة التسامح التي هي من شيم الكرام، ويتدرب على فن إقامة الجسور مع إخوانه، ومدّ أواصر الود والتفاهم، لا تشييد الحواجز النفسية أو الأسوار المادية التي تفرق ولا تجمع. فالفصل الدراسي، بهذا المعنى، لا يعود مجرد مكان لتلقي العلوم، بل مصنعًا للرجال ومدرسة للحياة الاجتماعية الر اقية، يُصقل فيه الفرد ليكون عنصرًا فاعلاً ومؤثرًا في أمته".

رابعًا: البعد الإبداعي.. إطلاق مكنونات العقل في بيئة آمنة محفزة

"وأما الإبداع، تلك الومضة النورانية التي يقدحها الله في العقول المتفتحة والأرواح الحرة الطليقة، فإنه كالنبتة الغضة، لا تنمو في أرض مجدبة من الخوف، ولا تزهر تحت سماء ملبدة بغيوم التهديد والوعيد، ولا تثمر في مناخ يكبت المواهب ويئد الأفكار في مهدها. إن الإبداع، بطبيعته، يتوق إلى الانطلاق، ويأبى القيود التي تكبل العقل وتقيد الخيال.

بل إن مهده الحقيقي وموطنه الأصيل هو تلك البيئة التي تحتضن الفكرة الوليدة بالتشجيع، وتستقبل المحاولة الجريئة بالترحاب، وتفتح الأفق أمام الخيال لينطلق ويحلق في سماوات

المعرفة بلا وجل. وقد أجمع أهل البصيرة والنظر على أن هذا الإبداع ليس ضربًا من العبث أو وليد الصدفة، بل هو ثمرة يانعة لجوٍّ نفسي واجتماعي يوفر الأمان، ويطلق للعقل العنان ليجول في آفاق الفكر والتأمل، ويسبح في بحار المعرفة، دون أن يخشى لومة لائم أو يرهب عثرة سقوط. ففي كنف مثل هذا الاحتواء، تتفجر ينابيع الإلهام، وتتألق الملكات، ويجرؤ العقل على أن يبدع ويبتكر، فيضيف إلى صرح الحضارة الإنسانية لبنة جديدة، ويقدم للبشرية زادًا من فكر نافع وعمل صالح".

من معين الوحي، وفي رحاب سورة طه، تتجلى لنا أنوارٌ تهدي المعلم إلى صياغة معراجه التربوي الخاص، ليبني إنسانًا لا مجرد متعلم. وإليكم، أيها المربون، قبسات من هذا النور، عسى أن تكون زادًا لكم في مسيرتكم المباركة:

١. اِبنِ مِحرابَ الأمانِ أولاً :قبل أن تغرس بذور المعرفة، هَيِّئ تربة القلب بالسكينة. فلتكن فصولكم واحاتِ طمأنينةٍ، يجد فيها المتعلمُ مَلاذَهُ، فيُشرِقُ عقلُهُ، وينطلقُ لسانُهُ، وتتفتَّقُ مَواهبُهُ كما تتفتَّقُ الزَّهرةُ للشَّمس.

٢. كُنْ طبيبَ أرواحٍ قبلَ أنْ تكونَ مُلقِّنَ أفكار :تفقَّدْ خَبايا النُّفوسِ برفقٍ، وامسحْ عن القلوبِ غُبارَ الخوفِ والقلقِ. فالعقلُ السَّليمُ في القلبِ السَّليمِ، والوجدانُ المُطمئنُ هو مِفتاحُ الإبداعِ والتَّفوق.

٣. اِنسُجْ خيوطَ الوُدِّ في مجتمع التَّعلُّم :لا تجعلْ من الصَّفِّ حلبةَ صراعٍ، بل مَيدانَ تآخٍ وتعاون. علِّمْهُم كيفَ يبنونَ جسورَ الحوارِ، ويُتقنونَ فنَّ التَّسامحِ، ففي اجتماعِ القلوبِ تتضاعفُ قوَّةُ العقول.

٤. أطلِقْ لخيالاتِهم العِنانَ في سماءِ الإبداع :لا تَئِدِ الفكرةَ الوليدةَ بنقدٍ مُتعجِّل، ولا تُطفِئْ شُعلةَ الفضولِ بتهديدٍ مُقيِّد. شجِّعِ المُحاولةَ وإنْ شابَها نقصٌ، واحتفِ بالسُّؤالِ وإنْ بدا بسيطًا، ففي رحمِ الحُرِّيَّةِ يُولدُ الإبداعُ الخلَّاق.

٥. اِجعلْ من التَّعلُّمِ رحلةَ اكتشافٍ لا عبءَ تلقين :خُذْ بأيديهم إلى ينابيعِ المعرفةِ، ودعْهُم يرتشفونَ منها بِشغفٍ. ليكنْ دورُكَ دورَ المُرشِدِ البصيرِ الذي يُنيرُ الدَّربَ، لا الحارسِ الصَّارمِ الذي يفرضُ المسارَ.

٦. تذكَّرْ أنَّ "مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى :"فليكنْ تعليمُكَ تذكرةً لا مشقَّة، وبشارةً لا عناءً، يُحيي الفِطَرَ، ويُوقظُ العقولَ، ويُسمو

الخلاصة

خلق بيئة تعليمية آمنة، مطمئنة، محفزة ليس زيادة فوق الحاجة، ولا زينة فوق البناء، بل هو أساس لا يقوم البناء التعليمي بدونه. وما أشبه هذه الرؤية القرآنية المتكاملة، بأحدث ما توصلت إليه مناهج التربية الحديثة: أن التعلم ليس ملء رأس بمعلومات، بل تربية إنسان متكامل الفكر والشعور والعمل. فكما لا تنبت الشجرة في تربة صخرية إلا بإرادة الله تعالى، لا تنبت العقول في بيئة خالية من الأمن، ولا تزهر الأرواح في مناخ يخلو من الحب والاحترام.

إن المعلم، في دوره هذا، يمثل امتدادًا لرسالة الأنبياء، التي جاءت لرفع المشقة عن البشر، ولهدايتهم إلى سواء السبيل. فمثلما أنزل الله القرآن تذكرةً لمن يخشى، لا لشقاء الناس، فكذلك العلم يجب أن يُقدم تذكرةً ونورًا، لا عبئًا وشقاءً.

فهل نُدرك، أيها المعلمون، عظم هذه الأمانة؟ وهل نسعى جاهدين لخلق تلك البيئة الآمنة التي تُصبح فيها قلوب طلابنا أوعيةً مستعدةً لتلقي العلم، تمامًا كالأذن الواعية التي تتلقى ذكرى الله؟ إنها مسؤوليةٌ عظيمة، ولكن أجرها عند الله أعظم.